احْتِرَاقُ الرُّوح[1]

المُغامرة الرُّوحيَّة لجلال الدِّين الرُّوميّ

بقلم: عائشة موماد(*)

كَرَّست آن ماري شيمِل حياتها لتعزيز التّفاهم المتبادل بين الشّرق والغرب وتشجيع الحوار ما بين الحضارات عسى أنْ يَعُمَّ السِّلمُ والسَّلام، لمْ تَكلَّ يوماً في سعيها من أجل مصالحة تينك المساحتين الثّقافيتين العظيمتين اللّتين لا تنقطعان عن المواجهة والجدال.

لطالما تخيّلتُ نفسي بين الحضور والسيّدة تُلقي محاضراتها حول الأبعاد الرّوحية للإسلام وشتّى أوجه التّشابه بين العناصر المتنافرة المتعصّبة لنشأتها ودينها وثقافتها، رغم أنّ هناك جسوراً ممتدَّةً من أجل كلِّ الفئات وفي كلِّ الأماكن والأزمنة لتسهيل العبور والذَّهاب والإياب، رأيتُ نفسي أستمتع بمحاضرتها حول مولانا جلال الدِّين الرّومي حين ألقتها بمُرَّاكُش سنة ١٩٧٧، وأنا طفلة لم أتجاوز بعد ثلاث سنوات، لم أكن لِأَفْقَهَ شيئاً مِمّا يدور حولي، لكنَّ للزمن مفارقاتٍ عجيبةً، لا تَفْنَى بعض الأشياء بمروره، بل تظلُّ خالدةً مستقرَّةً في مقامات بَرْزَخِيَّةٍ تنتظر العابر الَّذي يبحث عنها في كهف الرُّوح، بعد أربعين سنةً من مُقامها في هذا البلد الَّذي أرجوه آمناً، أحاول أن أُحَلِّقَ عبر الرُّوح وأنثرَ بعض الشَّذرات العَطِرة الَّتي لم تغادر هذا المكان

(*) باحثة ومترجمة من المملكة المغربيّة.

[1]* : نقدّم بهذه الكلمات كتاب آن ماري شـيمل عن مولانا جلال الدين الروميّ، وعنوان الكتاب الأصليّ: I Am Fire You Are Wind–The Life And Work Of Rumi, Shambhala Dragon Editions, Boston, 1997. By Annemarie Schimmel.

وقـد اعتمدنا في هـذا التقديم على الترجمة الفرنسـية:,L'Incendie De L'Âme– L'Aventure Spirituelle de Rûmi Albin Michel, 1998, Traduit par Sylvie Carteron.

يوماً، أخاطب السيّدةَ في رؤايَ وأقول: سيّدتي آن ماري شيمِل العظيمة، لطالما تمنّيتُ لقاءكِ، وها نحن اليوم نتجاذب أطراف الحديث ونستمتع بكلمات معشوقنا مولانا جلال الدِّين الرّومي. لكن، كيف لي أن أُحَدِّثَ عنكِ؟ يَخْجل القلمُ من فعل ذلك وأرجو أن يتَّخذَ المحبَّة عُذراً له ومَلاذاً.

ظلَّت السّيّدة آن ماري شيمِل في خدمة تراث مولانا منذ سنِّ الشَّباب بعد أن تعرَّفت على الشَّيخ من خلال التَّرجمات الشِّعريّة لروكيرت، وكان المثنويّ نِعْم الصَّاحب والرَّفيق في المعتقل الأمريكي بعد أن أُخْرِجت من برلين سنة ١٩٤٥. وبمرور الأيَّام والسِّنين، صارت العلَّامة شيمل من أكبر المختصِّين في الإرث المَوْلَوِيّ، ولعلَّ كتابَها The Triumphal Sun, a Study of the Works of Jalaloddin Rumi-1978 خيرُ دليل على أنَّها قد جعلت فكر الرومي وفلسفته وشعره من أولى اهتماماتها، إذ ظلَّت ما يناهز أربعين سنةً وفيَّةً لِمُلْهِمها، تَخُصُّه بالتَّأمُّل والدِّراسة والتَّحليل، ويَسُرُّني في إشارتي هاته أن أُنَوه بالجهود المباركة للعلّامة عيسى علي العاكوب الَّذي وفَّر للقارئ العربيّ-بالإضافة إلى ترجمة متون كثيرة للعلّامة آن ماري شيمِل- التَّرجمةَ الرَّصينةَ الَّتي جاءت تحت عنوان: الشَّمْسُ الْمُنْتَصِرَة، دراسةٌ في آثار الشّاعر الإسلاميّ الكبير جلال الدِّين الرّومي.

لَمْ يكن هذا الكتابُ الأثرَ الوحيدَ عن حياة مولانا جلال الدِّين الرّومي، فقد كانت تلك الصُّحْبَةُ الأربعينيَّةُ زاخرةً بالمؤلَّفات والدِّراسات والتَّرجمات، ولَمْ يَخْلُ مكانٌ في الشّرق أو الغرب إلّا وكان مولانا متربِّعاً فيه على عرش الإنسانيَّة والمحبَّة، فضلاً عن مَقامه السَّامي في التَّصوُّف الإسلاميّ والشِّعر الصّوفي.

واليومَ، أضع بكلِّ تواضعٍ أمام أعين القُرَّاء لوحةً منَ اللَّوحات الَّتي رسمتها السّيّدةُ آن ماري شيمِل خلال مسيرتها العلميَّة الثَّرِيَّة، إذ مازجت بين الألوان والأطياف والظِّلال، وصنعت فُسيفساء لخرائط الأمكنة ومسارات الأزمنة، حتَّى أنَّ القارئ لَيَجِدُ نفسه شريكاً في خَلق صورة متحرِّكة تتعدَّى حدود الزَّمن لترحل نحو ماض بعيد قريب، ليشارك مولانا جلال الدِّين الرّومي مغامرتَه الرُّوحيَّةَ الفريدةَ. إنّه الكتاب الذي جاء تحت عنوان: I'm Wind, You are Fire, The Life and work of Rumi وتُرْجِم إلى اللُّغة الفرنسيَّة بعنوان: L'Incendie de l'Âme, L'Aventure Spirituelle de Rûmi، إذ تُرحِّب بنا آن ماري شيمِل على لسان مولانا:

ادخُلْ إلى بيتي أيُّها الحبيبُ، لِلَحْظَة،
أَشْعِل روحَنا أيُّها الحبيبُ، لِلَحْظَة.
كَيْ يُشِعَّ نورُ العِشْق مِن قُونْيَة،
إلى سَمَرْقَنْدَ وبُخَارَى لِلَحْظَة.

سنتجوّل برفقة السيدة آن ماري شيمِل في قونية لبعض الوقت، لنُشاهد عن كَثَبٍ جمال العِمارة والزَّخارف المميِّزة للفنِّ السُّلْجُوقيّ، وسنسير على مهل داخل الأزقَّة والأسواق وكلِّ الأماكن الَّتي تحمل رائحة حضور مولانا بقونية، وسَنُحَدِّثُ مولانا كما حدَّثَ معشوقَه في أحد الأيَّام:

انْظُرْ، جَرَّبْتُ كلَّ شيءٍ وجُلْتُ في كلِّ مكان،
لكنِّي لَمْ أَجِدْ حبيباً عزيزاً مِثلَك.
اختبرتُ ماء كلِّ نافورة، وكلَّ حبَّاتِ العِنب،
لكنِّي لَمْ أَذُقْ خمراً أحلى منك.

سيكون من اللّازم تتبُّعُ هجرة عائلة مولانا من بَلْخ -مسقط رأسه- وانتقالها إلى مكَّة وبلاد

الشَّام لبعض الوقت، قبل التَّوجُّه إلى لارَنْدهْ -قَرَمانْ الحاليّة- وانتهاءِ المطاف بقونية، إذ صار مولانا فقيهاً واعظاً بعد وفاة والده بَهَاء وَلَدْ، فقد [مدَّ بِساط الوعظ والتَّفسير، ومَنَح أَلَقاً للاجتهاد والفتوى، ورفع عَلَمَ الشَّريعة]، وسوف يَبْرُز التَّأثير العميق لهذه المهمَّة لاحقاً في شعره ونثره. سنشاهده تلميذاً نبيهاً عند مريد والده بُرْهَان الدِّين مُحَقِّق التِّرْمِذِي، إلى أنْ تشرقَ شمسٌ من تَبْرِيز، لتُضْرِم فيه النّارَ وتُفنيه في عشق كُلِّيٍّ، فكان النّاتجُ في ثلاث كلمات:

لقد احترقتُ، واحترقتُ، واحترقتُ.

لقد كان مولانا مهيأً من أجل التَّحوُّل العظيم الَّذي سيقلب حياته رأساً على عقب، فكانت السَّنوات الطِّوال الَّتي قضاها برفقة معلِّمه بُرهان الدِّين مرحلةً مهمَّةً من أجل تحصيل المعرفة النَّظريَّة والعمليَّة حول الطَّريق الصّوفي، قبل أن [تُفْتَح أبوابُ مملكة الرُّوح وعالمِ الكِبرياء]، ويظهرَ شَمْسُ الدِّين التَّبْرِيزِيّ [مُوَزِّعُ النِّعَم]، ليخاطبنا مولانا فيقول:

وأنا خادمٌ للشَّمس، لا أتحدّثُ إلّا عنِ الشَّمس.

بعد غروب الشَّمس، لم يجد مولانا ملاذاً من البحث عن رفقة روحيَّة يتقاسم معها تجاربه، ومرآةٍ وفيَّةٍ ينعكس فيها نور الشَّمس حتَّى يستطيع استعادة الطَّريق إلى نفسه. جاء مولانا مجسِّداً للعظمة والجمال ومترجماً للقلب الذي استسلم كلِّيّاً لسلطة العشق، من أجل الارتقاء وبلوغ سعادة الفناء في المعشوق. مرَّ بتجربة [البقاءِ في الله] بفضل القلب الهادئ لرفيقه صلاح الدِّين زَرْكُوب، قبل أن يدخل [قوس النُّزول] برفقة حُسام الدِّين جَلَبي وينْظِمَ المثنويّ، ليعلِّم مريديه بكلِّ حبٍّ ما تعلّمه خلال سنوات من الوجد والألم.

وهو مع ذلك يَدين للأدب الفارسيّ القديم بالكثير، كلّما تخلّلت أبياتَه استعاراتٌ مباشرة أو تلميحات إلى أبطال روايات العشق عند نِظامي، أو صورٌ مجازيّة لِلْخَرَقَانِي وأَنْوَرِي، ولن ننسى اللّغة الشّعريّة لسَنَائِي الْغَزْنَوِي وفريد الدِّين العطّار، لكن الميل إلى الالتزام بالصّمت يُعدُّ نوعاً من الإلهام على ما يبدو:

يكفي، يكفي، لستَ أقلّ من بغل السّقَّاء،
يزيل السّقّاءُ الجرسَ عن عنقه عندما يعثر على الزَّبون.

ويقول مولانا ساخراً:

عندما يفرُّ العقل الَّذي يقوم مَقام الإمام، بقدوم العشق،
على المؤذِّن أن ينزل من صومعته في صمت.

يتساءل مولانا أحياناً عن معنى الشِّعر ويُعبِّر عن شعوره أنَّ شيئاً ما يحفِّزه لنظم كلِّ تلك الأبيات:

قرأتُ حكايات العشق ليلَ نهار،
وصرتُ حكايةً في عشقك.

ويكون أحياناً عارفاً بمصدر الإلهام حين يردِّد:

صارت كلُّ شَعْرَةٍ منِّي غَزَلاً أو بيتاً بفضل عشقك.

ثمّ قد نجده شاكياً:

عندما لا أقول الغَزَلَ، يذوب في فمي.

شِعر مولانا [قوتٌ للملائكة]، وحين يتوقَّف عن الكلام، يأتي [المَلَكُ الجائعُ] ليرغمه على الاسترسال في الحديث، لكنَّ الكلمات ليست سوى انعكاسٍ شاحبٍ للحقيقة، وليست الكلمة سوى [عشِّ طائرِ المَعْنى].

يعلم مولانا أنَّه مثلَ النَّاي، فهو غير قادر على

الكلام إلَّا إذا لامسه نفَسُ الحبيب، ويعلم أيضاً أنّ الشِّعر حجاب، فيردِّد معاتباً نفسه:

اتْــرُكِ الغَــزَل، وانــظر إلــى الأزل. تحدَّث مولانــا بكــلام صــامت، لــم تُســعفه المفرداتُ ولا الــقوافــي للتَّعبير عمَّا يخالجه، فالمنطوق به لا يُعَبِّر عــن دواخله والمسكوت عنه لا رسمَ يُنْطِقُه. عرَّجَ مــن المنطوق به نحو المسكوت عنه ولم يُفْصِح عمَّا به. هي أحوالٌ تُعاشُ دموعاً ودماً وألماً، وتجاربُ تُخاض في صمت مرير، وربّما تُنْطِق الحَجرَ والشَّجر. يُتَرْجِم الحجرُ والشَّجرُ بلغته الصَّامتة رسالةَ مولانا جلال الدِّين الرّومي لكلِّ مَنْ لهم أعينٌ يبصرون بها وآذانٌ يسمعون بها. يُسْحَق الحجرُ ليصبح تراباً أو طمياً وتتساقط ُعن الشَّجر أوراقُه وغصيناتُه في انتظار فصل جديد يَجلِبُ مِنحةَ الهواء والشَّمس. لا خريفَ يَنقضي دون ربيعٍ آتٍ يَجْبُر ما قبله، وحين تأتي الشَّمسُ المشرقةُ السَّاطعةُ، تُخفي بشعاعها أنوار كلِّ المصابيح الَّتي عاشت في العتمة مَهْمَا أنارتْ ليالي أصحابها لبعض الوقت. المحرومون مــن نــور الشَّمــس وحرارتها والجالسون في الظِّلِّ، هُمْ كالجليد والثَّلج، مخلوقاتٌ مثيرةٌ للشَّفقة خاضعةٌ للمادَّة، لكنَّها تتُوق أيضاً إلى الحرِّيَّة والعودة إلى الماء مادَّتِها الأصليَّة، مثلَ قلب الإنسان المنعزل الَّذي يتلهَّف للعــودة إلى الــمحيط الإلهــي.

يقول الثَّلجُ باستمرار: سوف أذوبُ وأصيرُ سَيْلاً،
أتدفّقُ نحو البحر، فأنا جزءٌ مِنَ المحيط!
كنتُ وحــيداً قاســياً جــامداً متجــلِّداً،
ثُمّ مضَغَتْني أسنانُ الأَسَى كما يَذوبُ الجليد!

أليسَ عالمُ المادَّة مثلَ جليدٍ يَذوبُ يومَ الحساب، بحيث يمكن تصوُّر الرَّبيع على أنَّه [بعثٌ صغيٌر]؟ سوف تَظْهر ثَمَرَةُ البذرة الصَّبورة الطَّيِّبة يوم الحساب في صورةِ نبتةٍ رائعةٍ، ويَظلُّ بستان ورد الوِصال التَّامِّ مغلقاً في وجه الباحث ما لَمْ يَذُب آخِرُ أثرٍ للثَّلج والوَعْيِ الأنانِيّ المتعلِّق بالمادَّة، سيستطيع الغراب التَّحوُّل إلى بازيٍّ بفضل الرَّحمة الإلهيَّة، وستُجْزَى الأشجارُ على صبرها الجميل خلال أيَّام الشِّتاء الطَّويلة الباردة، فيقول مولانا:

تبدأُ الغُصَيْنَاتُ في الرَّقص مثلَ التَّائبين،
والأوراقُ تُصفِّقُ مثل المُنشدين.

ويضيف قائلاً:

حوَّلَتْ نظرةُ الشَّمس الأرضَ إلى أحواض الزَّنبق،
أنْ تَقْبَعَ في البيت الآن، نَحْسٌ في نحسٍ.

في البحث عن الحقيقة تسقط الظِّلالُ والحُجُب، فلا مستقرَّ لها سوى في دركات النَّفس إذ تتلوَّن بألوانها، لكلِّ نفسٍ نصيبٌ من لونٍ أو ظِلٍّ، الظِّلُّ يُخفي عنك حقيقة وجمال وثبات الصُّورة، هي ثابتةٌ في معناها وحكيمةٌ في مغزاها، بينما ظلالُها سميكةٌ كثيفةٌ تحجب الرُّؤية الصَّحيحة، إذا نظرنا إلى الظِّلِّ لَمْ ننل مرادنا، وإنْ أطَلْنَا النَّظَرَ استُهْلِكنا بكثرة التَّلوينات والتَّغييرات حتى نُبعَد عن ضالَّتنا، كمن يرسمُ صورةً فوق الماء، أيُّ صورة ستتشكَّل فوق الماء وإن كان النَّقش لأمهر النَّقاشين؟ عبَّر مولانا عن هذه المفارقات بقوله:

هذا حالُ الإنسان، جاءَ حاملاً لجناحِ ملاكٍ ثُمَّ رُبِط بذيلِ حمارٍ،

فربَّما يصبح الإنســانُ مــلاكاً بفضل إشراقةِ صُحبةِ المَلاكِ.

إنَّها صورةٌ مؤثرةٌ تصف الوضعَ البشريّ، حقيقةَ أنَّ المخلوقَ الوحيد الَّذي يملك نوعاً من الحرِّيَّة يأتي في مقامٍ بين الحيوان والمَلاك، بين عالَم المادَّة الصِّرفة وعالَمِ الرُّوح الخالِص، إنْ سارَ خلف غرائزه الدُّونيَّة سقط أسفلَ مِن أيِّ حيوانٍ، لكنْ إنْ تَطهَّر وطَوَّر القدرات التي منحها الله تعالى إيَّاه، وصلَ إلى مقامٍ أعلى من مقام الملائكة، العشق هو المطلوب من أجل تحويل شيطانِ الإنسان إلى مَلَكٍ ومعدنِه البخسِ إلى ذهبٍ، لكن يظلُّ واعياً بضرورة تَوَخِّي الحذَرِ الدَّائم، إذ يمكن لأعمالِ الطّاعات أن تَنتُج عن حركات النَّفس الماكرة وتُفْضيَ إلى الرِّياء الرُّوحي:

النَّفْسُ تُمسكُ في اليد اليمنى بالمسبحة القرآن،

بينما تُخفي في كُمِّها السَّيفَ والخِنجر.

كان مولانا بارعاً في استخدام الصُّور المجازيَّة كما يَظهر جليّاً -يبقى كتاب [الشّمسُ المُنْتَصِرة] المشار إليه أعلاه من أهمِّ المراجع الّتي دَرَسَت وحلَّلت بإتقانٍ شديدٍ الصُّورَ المجازيَّة التي تزخر بها أشعار مولانا-، وارتبط جزءٌ مهمٌّ من معجمه بالصُّوَر المستمدَّة من المطبخ والغذاء، لقد أحبَّ هذه المجموعةَ من الصُّور الَّتي تَمثُل أمامه كوصفٍ حيٍّ ومعبِّرٍ عن المعاناة المتواصلة من أجل بلوغ النُّضج. يتفتَّت الحجرُ يوماً ما ليصير تراباً ينمو فيه النَّباتُ، ويأكلُ الحيوانُ هذا الأخيَر لكي يكبر ويصبح غذاءً للإنسان بعد ذلك. يتطوَّرُ الإنسانُ بدوره، وربّما يصبح قادراً على بلوغ عالم الرّوح الصِّرف.

شعرُ مولانا ونثره محاولةٌ للطَّواف حول صاحب تلك الآثار الواضحة في الكون، الَّذي خَلقَ الكونَ من العدم وما يزال مستمرّاً في الخَلْق، ثمّ أَرسل رُسُلَه لتعليم البشريّة؛ لذلك، وكأغلب شعراء العالم الإسلامي خاصّةً في إيران والدُّول الواقعة تحت تأثيرها الثَّقافي، يتَّخذ مولانا أنبياءَ القرآن نماذج لبعض الأشكال السُّلوكيَّة ورموزاً لمواقف إنسانيةٍ عامَّةٍ، ويتضمَّن المثنوي أيضاً مجموعةً من الحكايات حول الرَّسول ﷺ، وسوف نُصاب بالدَّهشة عندما نعثر على إشاراتٍ عدّةٍ إلى كتاباتٍ أو أحداث قرآنيةٍ، وإلى آيات لا يمكن لغير المسلم الَّذي لا يَعْرف الكتاب عن ظهر قلب أن يُمَيِّزَها عن غيرها، نجده يُوَضِّح ما يُمثِّلُه القرآن بالنِّسبة إليه في إحدى الفقرات الجديرة بالذِّكر في كتاب فيه ما فيه:

القــرآنُ ديبــاجٌ ذو وجهــين، بعضهــم يحــبُّ الوجــه الأوَّل والبعــض يحــبُّ الوجــه الآخر، كلاهمــا حقيقي وصحيح لأنَّ اللــه تعالى أراد أن يستفيد كِلا الفريقين منه.

مولانا واثقٌ أنَّ الخالقَ الحكيم عليمٌ بحوائج مخلوقاته، ومن خلال إحدى الصُّوَر الَّتي تنتمي للقريحة الشِّعريَّة نفسها لمولانا والعزيزة على الإسلام، هذا التَّقليدِ الّذي يُجَسِّد فيه الخطُّ شكلاً من الأشكال الفنِّيَّة الأكثرَ وقاراً، يرى مولانا خالقَه خطَّاطاً يمسك القلبَ بيده وكأنَّه القلم، هنا يمنحه الحديثُ النَّبويُّ تأييداً إضافياً لهذه المقارنة: «قلبُ المؤمن بين إصبعين من أصابع الرّحمان».

صار القلبُ قلَماً بين أصابع الرَّحمان،

سوف يخُطُّ هذه اللّيلةَ ياءً،

وستصير غداً رُبَّمَا باءً.

تَعْكِسُ الأبياتُ المتضمِّنةُ للأدعية حالات مولانا

الخاصَّة وحيرتَه اللَّامتناهية في حضرة المولى القدير، يَعلم قوَّةَ الدُّعاء النَّابع من القلب الخالص ويُلِمُّ سبحانه بكلِّ اللُّغات ويفهم التَّأوُّهَ الصَّامِت الصَّاعِد من قلب العاشق، وتشير مجموعةٌ من الأبيات إلى أنَّه [يُشْعلُ شمعةَ المناجاة في الظُّلُمات]، فهو الَّذي يُلهم الإنسانَ الدُّعاءَ:

وإلّا كيف للوردة أن تَنْبُتَ في حُفرة مِنْ رماد؟

ولأنَّ قلب الإنسان [أُسْطُرْلَابٌ للعشق]، يُظْهرُ مختلفَ مظاهره ومنازِله، فمولانا يحاول الوصف، أو بمعنى أدقَّ، يحاول رسم خطوط حول هذه السُّلطة، مستعملًا دائماً صُوَراً جديدةً ومفارقاتٍ غريبةً وحواراتٍ صغيرةً بين قلبه وتلك القوَّة الغامرة. ولا يكرِّرُ نفسَه أبداً:

سألتُ العشقَ ذات ليلة: قُلْ لي مَنْ أنت؟

قال: أنــا الحيــاةُ الأبديَّــةُ ومُضاعِــفُ الحياة الجميلة.

قلــتُ: أيُّها السَّــاكنُ مــا وراء كلِّ مكان، أين مسكنك؟

قال: بجوار دمع العين ونار القلب.

أنا صبَّاغٌ يُلَوِّن كُلَّ خَدٍّ بالزَّعفران،

أنا رســولٌ خفيفُ المِشــية، والعاشــقُ فَرَسِي المُفْعَمُ بالحياة.

أنا اللَّونُ القُرْمُزِيُّ للخُزامى، وأنا قيمةُ البضاعة،

أنا عذوبةُ النُّواح، وأنا كاشفُ الحِجاب.

لكن، ماذا بشأن العقل الذي يَصوغ جزءاً مهمّاً من ذواتنا، ويأخذ على عاتقه مهمَّة إرشاد أصحابه إلى الطَّريق الصَّواب والسَّيطرة على الأهواء؟

امتلأَ العشقُ وصار مكتنِزاً وجميلاً،

ومالَ العقلُ إلى الهُزال.

لستُ ممَّن يَظُنُّون أنَّنا نحتاج إلى صُحبة العقل على هذه الطَّريق، فلْتَقِفْ أيُّها العقلُ على عتبة الدّار ولا تُجادِل، ولْتَتْرُك الرّوحَ تَعْرُجُ في صمتٍ على جناحي الطَّائر المَلَكيّ.